حساباً مهما بلغت شناعة ما يصنعون ...

وكنت أكتم ضحكي تلقاءه ، وأخشى أن يغلبني ، فأتأهب لألحق بالمحصل وأوصد من خلفي الباب ؛ ثم أشغل نفسي بالتفكير في أمره ، فأقول لو أن لهذا « الدونشي » ولأمثاله من المتحمسين الأشداء مثل هذا الثبات في الجد من الأمور ، أو مثل هذا الرفض والإباء إذا دعاهم رؤساؤهم إلى غير ما يحبون ، لأخرجت أمتنا من الأبطال ما لم تخرج أمة مثله في غابر الزمن وفي حاضره ، ولكن أكثر تحمسنا يأتي حين لا تخشى قوة ، وكثيراً ما يكون في التافه من الأمور ..

وظل هذا « الدونشي » على ثباته وإصراره ، وظل القطار في موضعه والناس في العربات الأخرى ينظرون في ساعاتهم ويطلون من النوافذ ويظهرون أشد علامات التبرم والسخط ، ويطل بعضهم من الباب ينظرون إلى هذا الذي لا يبالي بشيء .

وجاء قطار آخر وتشاور المحصلون فيما بينهم ؛ ثم انطلق بعد حين ذلك القطار الذي يحملنا ويحمل الدونشي حتى وقف على إحدى المحطات ، فنزل مزهواً بالنصر ومشى مرفوع الهامة موفور الكرامة إلى حيث يتضاءل ويتصاغر بين يدي رئيسه .

الخفيف

أعلام معاصرون :

محمد عبد المطلب

١٨٧٠ - ١٩٣١ م

للشيخ محمد رجب البيومي

يرى المتجول في مديرية جرجا قرية « باصونة » الصغيرة ، حل بها لفيف من العرب الخلص الذين ينتمون إلى قبيلة جهينة وهي إحدى القبائل العريقة التي نزحت من الجزيرة العربية إلى مصر في حقب مختلفة ومازالت تتنقل في ربوع الوادي حتى استقر بها المقام في أعلى الصعيد

ومنذ ثمانين عاما كان بهذه البلدة الهادئة بيت مرموق المكانة يقصده الوافدون للتبرك بصاحبه الصوفي الزاهد « عبد المطلب واصل » فهو شيخ وقور تنتظم في بيته حلقات الذكر وتهب لديه النفحات الروحية الصافية ، ثم هو عالم متفقه في دينه يعظ الناس كل مساء بما وعاه من الكتاب والسنة ، فيهز أوتار القلوب . ويأخذ بمجامع العقول ، هذا إلى عربيته الخالصة ونسبه الصريح

ولد شاعرنا الكبير سنة ١٨٧٠ في هذا البيت الطيب ، فتربى تربية دينية قويمة . وطبع منذ نعومة أظفاره على الخلال العربية الحميدة ، وطبيعي أن يسلمه والده إلى معلم القرية فيحفظ القرآن الكريم ، ويلم بقواعد القراءة والكتابة ، حتى إذا فرغ من ذلك أمكنه من الفقه الإسلامي والحديث النبوي فارتشف ما قدر عليه من معينهما الرائق ، ثم أنس من نفسه المعرفة فجلس يعظ الناس مكان والده ، وهو يمد في مبدأ العقد الثاني من حياته الزاهرة ، فكان من يسمعه في هذه السن الباكرة يؤخذ بلباقته الفائقة ، ويدعو له بالنجاح والتوفيق

وكان العارف بالله الشيخ اسماعيل أبو ضيف شيخ الطريقة يزور مريده « عبد المطلب واصل » في « باصونة » من حين إلى آخر ، فشاهد نجله الصغير يعظ الجمع الحافل كعادته ، وهو لا يزال طري الأملود غض الإهاب ، فتوسم فيه النجابة والذكاء ، وزاد به إعجابه فعرض على والده أن يصحبه إلى القاهرة حيث يرتشف العلم الغزير من منهله الرائق بالأزهر الشريف ، وكانت فكرة حميدة تلقاها الوالد بالترحاب والقبول ، ولم يمض زمن وجيز حتى كان الواعظ الصغير طالبا بالأزهر يقضي فيه بياض نهاره ، فإذا جنه الليل توجه إلى منزل حاضنه الشيخ اسماعيل فلازمه حتى الصباح

وإذا كان الفتى قد شهد مجالس التقوى في صورة مصغرة عند والده بالصعيد فإنه في منزل حاضنه الأكبر الشيخ أبي ضيف يرى الصورة الكبيرة لهذه المجامع العامرة ، ويستمع إلى القصائد الصوفية التي تنشد في الحلقات كل ليلة ، فيحس لها رنينا مشجيا يدعوه إلى تفهمها واستظهارها حتى كونت لديه ملكة حساسة تطرب للتوقيع الجميل ، وتتذوق المعنى الرائع ، ومهما يكن من

شيء فقد كانت هذه المقطوعات الصوفية أول حافز دفعه إلى الانكباب على الدواوين الشعرية فى ميعة صباه يستوضح غامضها ويتفهم معانيها حتى خلقت منه فيما بعد شاعراً فحلا جزل العبارة فخم الأسلوب !

ولقد كان الطالب الأزهرى مبرزا بين لداته ، مشمولا بعطف أساتذته ومشايخه . إذ أن المبادىء الفقهية التى حصلها عند والده قد مهدت له أسباب التفوق والنبوغ ، ودفعته إلى التحصيل فى لذة وشوق ، فأخذ يستوعب كل ما يلقى عليه أتم استيعاب حتى نضج عقله فى مدى سبع سنوات قضاها فى الأزهر المعمور ، ثم هو لا يكتفى بما يأخذه من دروس قيمة فى اللغة والدين بل رتب لنفسه جزءا خاصاً من رائع الشعر العربى يحفظه يوماً بيوم ، حتى خرج من الأزهر إلى مدرسة دار العلوم سنة ١٨٩٢ م وعنده من غرر القوا فى ثروة ثمينة ساعدته على النظم فى مختلف الأغانين الشعرية ، وجعلته يثق بنفسه ويعتد بملكته أكمل اعتداد

ولقد هيأت له الظروف فى سنته الأولى بدار العلوم فرصة طيبة لمع فيها نجمه ، فقد وقف يرثى فقيد المعارف على باشا مبارك فى حفل عام أقيم لتأبينه فأتى بالرائع المعجب من الأبيات الرصينة ، وخرج أساتذته وزملاؤه الذين سمعوه ينثرون عليه أكاليل الثناء ، ويضربون به المثل فى قوة الشاعرية وصفاء القريحة ، مما حفزه بقوة إلى الإطلاع الدائب ، والإنتاج الثمين

وكان المرحوم الأستاذ الشيخ سليمان العبد إذ ذاك مدرساً فى دار العلوم وله ميل شديد إلى النظم . فكان لا ينشىء قطعة إلا عرضها على تلميذه مستنيراً برأيه أمام زملائه ، وكثيراً ماينزل على إرادته فيحذف ويثبت كما يملى عليه تلميذه الناشىء ، فإذا ما نشر قصيدته — وكان دائماً يكتب فى الوقائع المصرية — قرأها على تلامذته معترفا بما لعبد المطلب من أثر جميل

قضى الشاعر أربع سنوات فى دار العلوم وتخرج منها فى سنة ١٨٩٦ متوجا بالنجاح ، فنجا من قيود الدراسة التعليمية ، وهى كما نعلم — محصورة فى علوم خاصة ومناهج محددة ، قد لا يكون للشاعر فى بعضها رغبة ملحة أو حاجة ماسة ، أما الآن فهو حر فيما يقرأ ويدع ، وهنا نجد عبد المطلب قد عكف على الكتب الأدبية القديمة يستخلص لبابها ويستظهر أشعارها ، ويروى أخبارها ، ومن حظه أن عين مدرساً بمدرسة سوهاج الإبتدائية وبها يومئذ صفوة مختارة من عشاق الأدب ورواد المعرفة ، أذكر منهم المرحومين الأستاذ عبد الرحمن قراعه ، وعبد الله بك الطوير وعلى بك الكيلانى ، فنشأت بينهم وبين الشاعر صداقة وليدة تعهدها الأدب بمائه العذب حتى غدت دوحة مورقة وارفة فكانوا يعقدون مجالس السمر الأدبى حافلة بالنادرة الطريفة واللمحة البارعة ، فإذا جاء دور الشعر فحمد راويته الفذ وصناجته الحكيم ، وكثيراً ما يقترحون عليه أن ينظم فى معنى معين فيتحفهم بما يريدون مستعينا ببديهته الواثبة وقريحته المتوقدة ، وكان الشيخ قراءة أحبهم إلى قلب شاعرنا المجيد ، وإنك لتجد فى ديوانه قصائد عديدة ممتازة قالها فى صديقه الوفى تنطق بالود الخالص ، وتنبىء عن الحب الأكيد ! .

ولقد نظم الشاعر فى هذا العهد طائفة محمودة من الشعر السهل الواضح تتناسب مع تلامذته فى المدرسة الابتدائية ، فحببهم إلى الشعر يتذوقونه ويحفظونه بعد أن كانوا لا يجدون منه غير المثل المستعصى على مداركهم الناشئة مما خلف الأولون ، فكان عبد المطلب بهذا أول من خط الصحيفة الأولى فى كتاب الشعر المدرسى فى وقت صدف فيه التلاميذ عن كل ما يتصل إلى العربية بسبب . وإنك لتقرأ أبياته فى ذلك ، فتراها جليلة الغرض ، رائعة المغزى ، سهلة التناول ، سلسة النسج كأن يقول

إن كنت تبغى المعالى فالعلم أهدى سبيلا
فأحقر الناس من قد طوى الحياة جهولا
تراه بالجهل يمشى بين الأنام ذليلا
نحن الذين اتخذنا نور العلوم دليلا
لعلنا فى المعالى نجرى الذيولا

وهو لا يكتفى بحثهم على العلم فى هذا السمت الجميل ، بل يحببهم إلى الأدب بنوع خاص فهو عنده كل شىء فى الحياة ، اسمعه حين يصف لتلامذته القلم فيقول

إذا اهتز فى طرسه معجبا أذل شعوبا وأحيا شعوبا
فيسعد قوم به تارة وقوم به يصطلون الخطوبا
وطورا تراه يفض الجموع وطوراً تراه يثير الحروبا
وطورا ينادى الورى سائلا وطوراً يرد عليهم مجيبا

وفى ديوانه مقطوعات عامرة من هذا الطراز الرقيق ، ويقينى أنه أول من حفز صديقه وتلميذه الأستاذ الهراوى إلى سد هذا الفراغ فى الأدب ، فنظم ما نظم من شعر الأطفال ترضية لأستاذه الحبيب

(البقية فى العدد القادم) محمد رجب البيومى